

كتاب صدر عن دار الطليعة ببيروت ، وتكررت طبعاته فى زمن وجيز ، لا لطرافة المادة التى يقدمها ، أو لجدتها ، ولكن لغرابتها ، وجراتها ، وقدرتها على تجلية الباطل فى صورة الحق ، ولشرامة الدكتور (المسلم) فى التهجم على المقدسات ، وتطويع كل الوسائل الممكنة لديه فى الإنكار والرفض ، والنيل من أسس نعتز بها ، ونستمسك ، ونقيم عليها كياننا الروحى والاجتماعى والقومى . . . وكان بوسعنا أن نتجاهل الكتاب والكاتب بدعوى أن فى عرض هذه الأفكار الكافرة إشاعة للكفر . . . لكن هل يكفى أن نتجاهل الجرائم لتتقيا ؟!

إن الدكتور (صادق جلال العظم) يمتاز بقدرته على الحجاج ، ويستغل (الأقلام الدينية) فى عرض مفترياته . . . ومن هنا كانت خطورة ما قدم ، وتكون خطورة السكوت على هذا اللون من التناول ، لا لأنه يعرض الأفكار الإسلامية عرضاً خاطئاً ، ولكن لأنه يعرئ منهجاً محسوباً على الإسلام فى تناول الفكر الدينى ، ولأنه يعمل فى إطار سياسى مرسوم ، يقصد به التشكيك والبلبلة الفكرية ، وصولاً إلى تمزيق الوحدات الاجتماعية ، إلى الشعور بالاغتراب ، إلى الجفاف الروحى ، إلى الفكر المادى . . .

و (الدكتور) لا يداجى ، ولا يخاتل ، فبما يعرض ، وبما يقدم ، ليوهلك بأنه يملك الحقيقة ، فلا حاجة به إلى أن يلف ويدور ، ولأنه يعلم - بحكم الممارسة السياسية - أن المواجهة تختصر الطريق ، وأن المبادرة تشل إرادة الخصوم .

• • •

صدر كتابه بفقرة لياسين الحافظ تقول :

« إن نقد جميع جوانب المجتمع العربي الراهن وتقاليده نقداً علمياً علانياً صارماً ، وتحليلها تحليلًا عميقاً نافذاً - واجب أساسي من واجبات حركات الطليعة الاشتراكية الثورية في الوطن العربي ، وإنّ مثل هذا النقد هو وحده القادر على تهيئة الظروف التي تمكن من اقتلاع جميع الجوانب السلبية المعطلة والكابحة في إرثنا الاجتماعي » .

« إن تفجير الأطر التقليدية للمجتمع العربي سيؤدي بالضبط إلى إسراع وتيرة العمل لبناء مجتمع عربي عصري كلياً وبدون هذا التفجير فإن إمكانية نمو منتظم وسريع وثوري في البنيان الفكري والاجتماعي التقليدي للشعب العربي سيفقدو أمراً مشكوكاً فيه ، إن لم نقل مستحيلاً ، كما أنه في نفس الوقت - سيلقى بظلاله السلبية المعطلة للنمو الاقتصادي الجاد السريع » ص ٥ ط ٣ سنة ١٩٧٢ م .

هذا هو الهدف . . . « اقتلاع جميع الجوانب السلبية المعطلة للنمو الاقتصادي السريع . . . وتفجير الأطر التقليدية لبناء مجتمع عربي عصري كلياً » . . .
والاقتلاع والتفجير في الواقع الاشتراكي الذي نعيشه كثير من الدول حولنا لا يمثل إلا بريقاً لفظياً مجازياً ولكنه الحقيقة المثلثة في (التصفية الجسدية) ، وفي إهدار الحرمات ، وامتصاص كل الطاقات الحيرة الواعدة ، حتى إذا تجردت الأرض ، وجفت البنايع المورثة ، بدأ التفكير في البناء ، وأى بناء بعد أن تنقطع الأسباب ، وتهدأ القوى ، وتموت العزائم !؟

وعلى هذا يكون مفهوم (السلبية والتقليدية والتعطيل) . . .
وما أكثر ما حمل (اليساريون المتطرفون) الألفاظ من دلالات ، وما أكثر ما أضافوا إلى اللغة ألفاظاً ذات حروف عربية ومضامين خبيثة ، غريبة على الذوق العربي والوجدان العربي .

وقدم (الدكتور) لكتابه بقوله :

« ينبغي أن يكون واضحاً أن الفكر الدينى . . . ليس إلا الصعيد العلوى
الواعى لكثلة هلامية شاملة ، غير محدودة الجوانب من الأفكار والتصورات
والمعتقدات والغايات » ص ٧ .

الرسالات السماوية إذن (كتلة هلامية غير محدودة الجوانب) . . . وبهذا تخلو
من مفهوم (الرسالة) الذى هو تشريع ، أوامر ونواه ، حقوق وواجبات . . . وبحار
المراء : كيف يجمع بين هذا (المفهوم) وبين (الصعيد العلوى الواعى) ؟ وكيف
تكون (الأفكار والتصورات والمعتقدات والغايات) لكثلة هلامية ؟ !
أ يكون هذا القول منصرفاً إلى ما نسميه (الغيبيات) وهل كل الفكر الدينى
غيبيات ؟

إن (الفكر الإنسانى) لا يمتد إلى كل شىء ، ولا ينكشف له كل شىء . . . ومن
البدنيات أن الغيبيات جزء من حياته ، رضى أم كره ، فإذا كان لا يعلم ما يجرى
خلف بابه ، أو تحت نافذته ، بل لا يعلم ما سيحدث له إن لم يكن لا يعلم ما حدث
له ، فكيف نكر أن (يغيب) عنه من أمر الروح والملائكة والجن والجنة والنار ؟ !
ما أجمل قول الحلاج : يا عجباً ممن لا يعرف شعرة من بدنه كيف تنبت
سوداء أم بيضاء ، كيف يعرف مكنون الأشياء !!

الفكر الإنسانى قاصر ، ونحوه دلالة قصورة ، ومن قصوره ألا تكتمل (الأفكار
والتصورات والمعتقدات والغايات) تابعة من ذاته ، ومن ثم كانت الحاجة إلى
الرسالات السماوية ، تقوّمه ، وتبصره ، وتهديه ، ولو ترك أمره بيده لما كانت
الهداية ، لأن (الأفكار والتصورات والمعتقدات والغايات) الإنسانية تأخذ شكلاً
فردياً وشكلاً جماعياً ، ومع الفردية والجماعية تتطور أو تتصارع ، وتتوالد ،
وتتفانى ، ولا يكون التكامل ، وإن حظيت فى مرحلة بالتأييد ، وبالمغلاة فى
التقدير .

• • •

وأول فصول الكتاب بحث عنوانه : الثقافة العلمية ويؤس الفكر الديني
ألقى جزءاً منه في النادي الثقافي العربي ببيروت ، ونشر في مجلة النادي (الثقافة
العربية) أيار سنة ١٩٦٥ ، والنادي والمجلة معروفان بلونها الأحمر .
وجعل شعاراً لهذا البحث قول أبي نواس : « وداوئي بالتي كانت هي
الداء » . ثم مضى يقول :

(إننا نمر ، في طور نهضة مهمة ، وبانقلاب علمي وثقافي شامل ، وبتحويل
صناعي واشتراكي جذري ، لأننا تأثرنا إلى أبعد الحدود بأخطر كتابين صدرا في
القرنين الأخيرين : رأس المال وأصل الأنواع) ص ٢٠ .
ومع هذا فأمامنا طريق طويل للنضال ، لأنه :

(يجب ألا يغيب عن بالنا أنه مرت على أوروبا فترة تتجاوز القرنين ونصف القرن
قبل أن يتمكن العلم من الانتصار انتصاراً حاسماً في حربه الطويلة ضد العقلية
الدينية التي كانت سائدة في تلك القارة ، وقبل أن يثبت نفسه تبييناً نهائياً في تراثها
الحضاري ، ولا يزال العلم يحارب معركة ممثلة في معظم البلدان النامية ، بما فيها
الوطن العربي ، علماً بأنها معركة تدور رحاها في الخفاء ، ولا تظهر معالمها للجميع
إلا بين الفينة والأخرى) ص ٢١ .

وتساءل : لماذا المعركة بين العلم والدين ، ولكل ميدانه ، إذا قصدنا بالعلم
دائرة النشاط العقلي في المجال المادي ، فإذا قلنا : إن الدين يعالج الشئون الروحية
والأخلاقية والإنسانية بعامه ، فقد أصبح العلم في خدمة الدين ، أو في خدمة
المجتمع الإنساني ، الذي يقوم الدين على تقويمه وهدايته .

ثم ، إذا كانت هناك (معركة تدور رحاها في الخفاء) ، ممثلة في نشاط الحلايا
الشيوعية ، أو الحاقدين والمتمردين ، فإن (الخفاء) يوحي بأنها ليست معركة ضد
الدين بقدر ما هي معركة ضد رجال الدين . والمعركة ضد رجال الدين لا تعني
بالضرورة أنها ضد الدين ، لكن المعركة في الحقيقة معلنة بقدر ما يملك هؤلاء

الناقون (الكلمة) ، ومن ورائهم تنظييات وأموال تغذى هذه المعركة . وهذه المعركة تأخذ أشكالاً وأبعاداً مختلفة ، وتتلون بألوان كثيرة ، لا للدلالة على عمق وسعة المعركة بل بسبب خبث وضعف أداة المثيرين والمؤثرين لئارها .. يقول (الدكتور) :

(من نافل القول أن نردد أن الطريقة العلمية في الوصول إلى معارفنا وقناعاتنا عن طبيعة الكون ونشأته ، وعن الإنسان وتاريخه ، تتنافى تماماً مع هذا المنهج الإثباتي السائد في الدين) ص ٢٢ .

ويلاحظ أن قوله (تتافى تماماً) منطق غير علمي ، لأنها قد تختلف ، لكنها (لا تتنافى) بل تتكامل ، لأن الدين لا يحدث عن طبيعة الكون ونشأته ، وعن الإنسان وتاريخه إلا بشكل (إجمالي) ، يخدم (الدعوة) ، ويؤدي إلى طاعة خالق الكون والإنسان والكشوف العلمية تزيد المؤمن إيماناً ، لأنها تربه عظمة الخالق في خلقه ، أما الذين في قلوبهم مرض فإنهم يتلمسون أسباب الرقض والإنكار ، ويعكسون إفراساتهم الخبيثة على كل ما حولهم .

ثم من أين جاء أن المنهج الإثباتي (سائد في الدين) ؟ قد يكون الأقرب إلى منطق أن يقول (سائد في الفكر الديني) ، أما الدين . ورغم دعاوى نسبه إلى (الرسول) فإنه منهج أصيل ، قائم على أسس ثابتة ، لم يسبق إليها بما يمكن أن يكون مقلداً له

أما القول بأن : (وظيفة المؤمن والحكيم والفيلسوف والعالم ليست اكتشاف حقائق جوهرية جديدة ، أو اكتساب معارف هامة لم تكن معروفة من قبل ، وإنما العمل للوصول إلى نظرة أعمق وفهم أشمل للنصوص المتزلة ، والعمل للربط بين أجزاء هذه النصوص وتأويلها . ومن ثم تأويل التأويلات ، حتى تستنبط معانيها الدفينة ، ويتوصل إلى الحقائق والمعارف الكامنة فيها منذ الأزل ، وهذا العمل ضروري وجوهري ، استناداً إلى الآية القرآنية : « ما فرطنا في الكتاب من

شئ «) . ص ٢٣ . فهذا تلاعب لفظي يتوصل به إلى نتيجة رضية مسبقاً :
(فلا عجب إذن إذا وجدنا التاريخ الفكري للدين يتألف دائماً من تفسير ،
وشروح ، وشرح الشروح) ص ٢٣ . لأن الحقيقة غير المتكورة أن هناك نصوصاً
دينية وشروحاً ، وشروحاً للشروح ، لكن ليس مصدرها عقم الفكر الديني ، ولكن
تطور هذا الفكر وعموه وقدرته على الحركة ، إذ لابد أن تتطور الرؤية للنص بتطور
الثقافة الإنسانية والمؤثرات العامة ، وهذا ليس مقصوراً على النص الديني ، بل على
كل النصوص ، فهناك شروح لأرسطو وأفلاطون ، وشروح وشروح الشروح
للماركس ولينين ، ولا مأخذ على هذا كله من هذه الزاوية .

ثم إن هذه الحقيقة لا تمثل (منهجاً) ، ولكنه لون من النشاط الفكري ، أما إذا
كان هناك تطلب للمنهج فليظفروه في كتابات المعتزلة والصوفية ، وفي كتابات أهل
السنة في الملل والنحل . . . وهناك دراسات وافية ، قديمة وحديثة ، عن مناهج
هؤلاء جميعاً . . .

أما (أن الروح العلمية بعيدة كل البعد عن هذا المنطق وهذه النظرة الدينية .
لأن العلم لا يعترف بوجود نصوص لا تخضع للنقد الموضوعي والدراسة الجدية ،
ولأن من أبرز سمات النشاط العلمي فكرة الاكتشاف) ص ٢٣ فهذا افتراء آخر ،
لأن (فكرة الاكتشاف) بالمفهوم العام تمثل في دعوة القرآن الكريم إلى النظر في
أنفسنا . وإلى النظر في ملكوت السموات والأرض ، وإلى النظر في تاريخ من
سبقنا ، ومثل هذا النظر يولد المعرفة . ويتحقق اليقين . . .

ثم إن الدين لا يقف دون (النظرة العلمية) التي (تخضع النصوص للنقد
الموضوعي) ما دام الناقد يملك عدة النقد وآدابه ، ويعترف بالمنهج الديني ، لأنه
بهذا النقد الأمين الذي يتحرى (الحقيقة) ، ولا شيء إلا الحقيقة - يستطيع
(اكتشاف) دلالات خفيت عليه ، وهي في جملتها تمثل حقائق إنسانية .

لاحقائق مادية ، لأن ما تضمه التصوص من حقائق مادية إنما هو في خدمة الحقيقة الإنسانية أو الحقيقة الكونية بصورة عامة .

* * *

ويدعى : أن الإسلام أصبح (الأيدولوجية الرسمية للقوى الرجعية المتخلفة في الوطن العربي وخارجه) ص ٢٣ . ولوسلمنا بهذا فالذنب ليس ذنب الإسلام ، بل ذنب الذين يتظاهرون بالإسلام ، لأن الإسلام قوة ثورية خيرة ، ترسم الطريق إلى وحدة الإنسانية ، القائمة على المحبة والمساواة ، في الحقوق والواجبات ، وعلى الحرية والعزة ، بحيث لا يخضع الإنسان إلا لله ، ولا يعترف إلا به ، لا أن يخضع خضوعاً أعمى لزعم أو مذهب ، ولا أن يسخر قواه التي منحها الله إياه من أجل (الاقتلاع والتفجير) والتخريب والهدم ، وشن الحرب الطبقية ، وإفقار الأغنياء ، وزيادة فقر الفقراء ، من أجل أن تسود عصابة تعتصر كل الخيرات ، وتعيش في رفاه وتجبر الأباطرة والملوك .

* * *

ويدعى أن (الدين بطبيعته مؤهل لأن يلعب هذا الدور المحافظ ، وقد لعبه في جميع العصور بنجاح باهر ، عن طريق رؤياه الخيالية لعالم آخر تتحقق فيه أحلام السعادة) ص ٢٤ .

قد يكون هناك من استغل الدين لطمع دنيوى ، وقد يكون للأمل في ثواب الآخرة ما يدعو إلى الرضا والاستهانة بعذابات الدنيا . لكن أن تتحول (أحلام السعادة) في الآخرة إلى (رؤيا خيالية) فهذا هو التجاوز الذى يقوم على إنكار البعث ، وإنكار الحساب والثواب والعقاب ، مع أن المنطق العادل الذى أقرته الفلسفات (غير المادية) ألا تنتهى حياة الإنسان المتنامية بهذا الموت العارض . ثم إن ميزان الحياة القائم على العدالة والمحبة والخير والتضحية مرده إلى الإيمان بالآخرة ، وإلا أصبحت الدنيا غاية . يسعى كل من فيها - خلال حياته التى

لا يدري متى تنتهى - إلى أن ينال أكبر نصيب من السعادة ، فى حدودها الموهومة والمتخيلة ، ولعل هذا ما يفسر جنوح (الماديين) إلى العنف والقسوة والتضحية بالملايين ، فى سبيل التسلط والانتقام وإشباع الغرائز الجامحة ، يقول ديستوفسكى على لسان أحد أبطاله : (إذا كان الله غير موجود فكل شئ مباح) .

ويقول أفلاطون (الوثنى) فى جمهوريته : إن الرجل العادل إذا عانى فى حياته الفقر والمرض أو غيرها من المصائب فسوف تكون عاقبة أمره خيراً ، سواء فى هذه الحياة الدنيا أو فى الآخرة ، لأن الآلهة لن تهمل من جاهد نفسه حتى صار عادلاً ، ومن استطاع ببه وفضيلته أن يتشبه بالآلهة على قدر طاقته .

ويقول فى كتابه (جورجياس) : إن « راداسانت » يحاكم النفوس فى الحياة الآخرة ، فيرسل النفوس الشريرة تهوى إلى أعماق الحميم ، ويرسل أرواح الفلاسفة إلى الجزر السعيدة .

وهذا قال أرسطو وزارادشت وكثير من المفكرين الذين آمنوا بالحياة وبالإنسان ، ولم يقنعوا تحت طائلة العينية والعدمية الصماء ، ولم يقنعوا فى إसार الإنكار والرفض لمجرد أن عيونهم لا ترى ، وأن آذانهم لا تسمع ، وأن قلوبهم خاوية ، وأن عقولهم زاوية .

وما أجمل قول جلال الدين الرومى فى هؤلاء المفكرين عن عمى وغباء :
لو أن شخصاً قال لجنين فى الرحم : إن فى الخارج عالماً بالغ النظام ، أرضاً طيبة ذات عرض وطول ، فيها مائة نعمة ، وكثير من الأكل ، وجبالاً وبحاراً ومروجاً وبساتين وحدائق ومزارع ، وسماء سامقة العلو ، مليئة بالضياء ، وشمساً وقرراً ومائة من الكواكب ، وحدائق حافلة بالأعراس والولائم .

إن عجائب هذا العالم لا يحيط بها الوصف ، فلماذا أنت فى هذه الظلمة أسير

المحنة ٢

إنك تحتسى الدماء ، وأنت مصلوب في مكان ضيق ، أسير حبس وندس وعناء .

لكأن الجنين - بحكم حاله - مُكبراً ذلك القول ، مُعرضاً عن تلك الرسالة ، كافرأ بها قاتلاً : إن هذا محال ووهم وخداع . . . ذلك لأنه خيال الأعمى ، لا تصور له . . .

وهكذا عامة الخلق في هذه الدنيا ، يحدّثهم المرشدون الروحانيون عن هذه الدنيا ، قائلين : إنها عالم بالغ الظلمة والضيق ، لكنّ خارجها عالم تسامى عن الروائح والألوان ، فما تنفذ إلى سمع أحدهم كلمة قط ، فالطمع حجاب جسيم كيف . . . إن الطمع هو الذى يسد الأذن عن الاستماع ، والغرض هو الذى يغمض العين عن الاطلاع^(١) .

• • •

ويدعى أن (الدين بديل خيالى عن العلم ، ولكن تنشأ المشكلة عندما يدعى الدين لنفسه وللمعتقداته نوعاً من الصدق ، لا يمكن لأى بديل خيالى أن يتصف به ، إن محاولة طمس معالم النزاع بين الدين والعلم ليس إلا محاولة يائسة للدفاع عن الدين ، يلجأ إليها كلما اضطر الدين أن يتنازل عن موقع من مواقعه التقليدية ، أو كلما اضطر لأن ينسحب من مركز كان يشغله في السابق ، إن نمط هذه العملية معروف جيداً ، إنها تبدأ بصدام شديد بين النظرة العلمية الجديدة حول موضوع ما ، وبين النظرة الدينية السائدة إلى الموضوع ذاته ، وبعد نزاع قد يستمر سنين طويلة تنتصر النظرة العلمية الجديدة ، وتسود بين كبار المفكرين ، وتنتشر بين الفئات المثقفة تماماً ، عندما يوشك العلم أن يتجاوزها إلى نظرة أفضل ، عندئذ يقول أصحاب النظرة الدينية ، إنه لم يكن من موجب لهذا النزاع أصلاً ،

(١) جلال الدين الرومى - د كمالى - بيروت سنة ١٩٧١ ص ١٣٣ / ١٣٤

لأن الخلاف لم يكن بين جوهر الدين وروحه من جهة وبين العلم من جهة أخرى ،
لذلك لا يضير المدين أن يتنازل للعلم عن أمور لا تمس روحه ، ولكن الحق يقال ،
إن هذا النمط من التفكير مجئى وراءه سلسلة طويلة من التراجعات الهامة والحاسمة
اضطر إليها الدين عندما وقف وجهاً لوجه أمام العلم (ص ٢٤) .

لو أن (الدكتور) فحص مقدماته التى بنى عليها نتائجها لأراح واستراح ، ولكنه
مصر على المغالطات التى تتخذ أهداف (الاستعمار الأحمر) الذى كشف عن محالبه
وأنيابه فى كثير من بلاد الدنيا . . . ويتعمى الصملاء والأدعياء عن الحقائق المرة التى
تقوم على الإبادة والتخريب ، على أمل أن يكونوا فى يوم الفئة القليلة المستغلة
المستبدة ، أوفى ركاب هذه الفئة . . .

يقول : (إن الدين بديل خيالى عن العلم) ، مع أن الدين غريزة ، والإيمان
فطرة ، وهذه حقيقة نفسية حدثت بها النصوص الدينية ، وأيدها علم النفس وعلم
الاجتماع ، والغريزة والفطرة أصل لا بديل ، وحقيقة لا خيال ، لكن الكاتب
(الدكتور) يريد اختلاق معارك بين العلم والدين ، يتنصر فيها العلم ، وينهزم
الدين ، مغطياً انسحابه بما يشير من غبار !!

وقد سبقت الإشارة إلى أن منهج الدين وميدانه غير منهج العلم وميدانه ، وأن
العلم المرتكز على قاعدة نفسية سليمة يؤدى إلى الإيمان وتعميقه ، والعلم مع النفوس
القلقة المضطربة يساعد على التردد والطيش والتجاوز ، شأن أية قوة مادية ، فالمال
والجاه يعلان هذا الفعل ، وإن اختلفت الصورة . . .

وقد ثبت أن الدين يكثر طلابه فى حالة الإحساس بالضيق ، لأن فيه العزاء ،
ولأن الحقيقة الإنسانية الجاحدة تتجلى فى قول الله سبحانه : (وإذا مس الإنسان
الضرر دعانا لجنبه ، أو قاعداً ، أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضرره مرَّ كأن لم يدعنا إلى
ضرره) (يونس ١٢) .

الدين عزاء فطرى ، وعلاج نفسى ، وملاذ الضائعين والخائفين والمعوزين ،

لأنه سبيل الارتباط بالقدره الإلهية ، وبالقوة الكونية المسيطرة ، يستوى في ذلك العالم والجاهل ، إلى حد ما ، وأى منكر للكائنات غير المرئية ، المعتز بعلمه ، حين يحتويه الظلام ، سيتعزى عن مكتسباته العزيزة ، ضارعاً إلى الله . . ليس هذا بحكم موارث البيت ، بل هى (فطرة الله التى فطر الناس عليها) . (الروم ٣٠)
ولعل (فرعون) الممثل للقوى المادية ، حين أدركه الفرق ، وقال آمنت بالذى آمن به موسى - خير معبر عن هذه الحقيقة . فالدين حقيقة قائمة في البنيان الإنسانى ، بل في كل بناء ، (والله يسجد ما في السموات وما في الأرض) (النحل ٤٩) ولكن دواعى الغفلة ودواعى الغرور تدفع إلى الاعتزاز بالإثم ، وإلى أن يهرف الإنسان بما لا يعرف ، تطاولوا وادعاء وجوداً .

ولو أن الدين انهزم في معاركه مع العلم ماكان له أن يعيش في عصر الذرة والصاروخ وسفينة الفضاء ، وماكان بوسعهم أن يقف بصدر عارية في وجه أعنى وسائل الإبادة التى يملكها الشيطان الأحمر
إن المعركة لم تقم بين الدين والعلم ، ولكن بين رجال الدين ورجال العلم ، أو بين سلطان دنيوى وسلطان آخر ، ومن هنا كان تساقط الحجج ، وكانت الهزائم رهناً بقدرة كل فريق على الإبانة ، لا بقدرة الدين ولا بقدرة العلم .

• • •

ويقول : (إن الاعتقاد بأننا سلقى في العالم الآخر أولئك الذين نكن لهم الحب يعطينا أكبر العزاء عند موتهم ، ولكنى لا أجد أى مبرر لافتراضنا أن الكون يهتم بآمالنا ورغباتنا . . ولا أحسب أنه من الصواب والحكمة أن نعتق آراء لا تستند إلى أدلة بينة وعلمية) ص ٢٧ .

وهى دعوى اصططنها الكاتب ، لأن أحداً لم يقل بأن الآخرة مطلب لقاء الأحباب : (يوم يقرُّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه ، لكل امرئ منهم

يومئذٍ شأن يغنيه) (عبس ٣٤/٣٧) . وإن كان من كمال السعادة في الجنة أن
يجتمع شمل الأسرة المؤمنة الصالحة .

ركز على الجانب العاطفي - وهو ما تلقفه من كتابات وثنية - ليشير إلى أن العالم
الآخر من صنع الإحساس بالفراغ ، أو الشوق إلى المجهول ، وليس حقيقة دينية ،
عالجها القرآن الكريم في آيات كثيرة ، لأنها إحدى ركائز الإيمان ، ولأن الخير والشر
والطاعة والمعصية رهن بما يجرى في الآخرة من حساب ، ولأن المشركين ظالما عجبوا
من البعث بعد الموت : « أَتَدَامِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا ، أَتُنَاجِعُونَهُ » ؟ (الصافات
١٦) . (إنَّ هِيَ الْآمُوتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُتَشْرِينَ) . (الدخان - ٣٥) .
(الدكتور) ما زاد على أن ردد ما قاله المشركون منذ قرون طويلة ، ولم يكلف
نفسه جهد الإمساك بالقرآن الكريم ، ليعرف ما إذا كانت هناك (أدلة بيّنة وعلمية)
أم لا .

إنه لا يؤمن إلا بما يرى ، مع (علمه) أنه لا يرى ملايين الكائنات الدقيقة التي
تسكن جسمه ، وتسكن الغلاف الجوي الذي يحيط به ، إلا بوسائل (علمية)
مكبّرة ، كما أنه لا يرى ملايين الأجرام السماوية ، مع ضخامتها ، ولا يدري من
أمرها ، مع قدرته (العلمية) على الوصول إلى القمر والمريخ .
ومع أن العلم لا يجرؤ على القول بأن حركة الأجرام السماوية (وكلُّ في فَلَكٍ
يسبحون) منذ ملايين السنين - يمكن أن تتم بهذا التنسيق والتناسق الرائع بفعل
الطبيعة أو المصادفة فإن (الدكتور) ينكر وجود الله ، مكتفياً بذكر (الكون) ،
وكأنه بهذا الإنكار قد احتفظ لنفسه بحق (المعرفة) ، مع أن (الإنكار) يمثل عجزاً
وضعفاً وخذلانا ، وهو موقف الكافرين منذ الجاهلية الأولى ، « وما يُهلِكُنَا
إِلَّا الدَّهْرُ » (الجاثية ٢٤) فهل الدكتور يمتص أفكاره من قبور الجاهلية في عصر
الليكترون والبيترون ؟ .

الماركسية دين :

(إن الاشتراكي الحقيقي لن يكون مسروراً عندما يكتشف أن أهم مبدأ في عقيدته هو الإيمان بالله) ص ٤٧ .

إعلان صارخ مهد له بقوله :

(أما النظرة العلمية فقد عبر عنها أحسن تعبير فيلسوف وعالم رياضى آخر - لابلاس - Laplace عندما قدم كتابه نظام الكون هدية إلى نابليون ، فسأله الإمبراطور : وما المكان الذى يحتله الله في نظامك ؟ فأجاب لابلاس : الله فرضية لا حاجة لى بها في نظامى .. فهل من عجب إذن أن نسمع نيتشه يعلن في القرن الماضى أن الله قد مات ؟ وهل باستطاعتنا أن ننكر أن الإله الذى مات في أوروبا بدأ يحتضر في كل مكان ، تحت وقع تأثير المعرفة العلمية ؟) ص ٢٧ .

(إن النظرة العلمية التى وصل إليها الإنسان عن طبيعة الكون والمجتمع والإنسان خالية من ذكر الله ، تماماً كما قال لابلاس) ص ٢٨

مجرد أن يقول لابلاس أونيته من الملاحدة - قولاً في حالة من العمى أو الهديان ، فإن هذا القول في نظر (الدكتور) يمحو كل قول جاء به الرسل والأنبياء والحكماء والفلاسفة والعلماء ، ويغضى على كل هذا النشاط الدينى العام المتمثل اليوم في شباب الجامعات ، وبخاصة كليات العلوم والهندسة والطب . ويورد (قطعة أدبية) لبرتراند رسل بعنوان (عبادة الإنسان الحر) تقول بان الكون نشأ من (السديم الحار الذى دار عبثاً في الفضاء عصوراً لا تعد ولا تحصى ، ثم بدأ يتقوّل ، فخرجت منه الكواكب ، وبردت ... إلخ) ص ٢٦/٢٥ . ونحن - إذا تجاوزنا عن كلمة (عبثاً) لعامل أو لآخر - نجد أن قول (رسل) لا يبعد عن قول الله سبحانه : (ثم استوى إلى السماء - وهى دُخان - فقال لها وللأرض : اثريا طوعاً أو كرهاً قالتا : أثينا طائعين) . (فصلت - ١١) .

ثم إن قول (رسل) لم ينكر أن هذا تم بإرادة الله ، لأن هذا السديم الحار لا يتقلب في ملايين الشمس التي تدور في مدارات منتظمة ، دون أن تصادم . على مدى ملايين السنين ، مستقلة عن إرادة عقل كلي يحكم هذا النظام الكوني . ومع أن رسل وغيره من المتحدثين عن أولية الكون إنما يتحدثون عن ظن وحس وتخمين ، محسكين بعض الحيلولة التي لا تملك الجزم أو اليقين . . ومع أن (الاعتراف الصحيح بأننا لا نعرف ما لا نعرفه من أهم مقومات التفكير العلمي) ص ٢٩ - فإن (الدكتور العالم) يأتي إلّا أن يكون الرفض والإنكار سبيله ، بحيث إذا قلنا من أين جاء السديم ؟ قال : ومن أين جاء الله ؟

(وبذلك يحسم النقاش ، دون اللجوء إلى عالم الغيبيات ، وإلى كائنات روحية بحجة لا دليل لدينا على وجودها) ص ٢٨ وينسى (الاعتراف الصحيح بأننا لا نعرف) ، ويبني على هذا موقفاً عاماً من الأخبار الدينية ، فيقول : (كيف يكون موقف الإنسان الذي تعرض للثقافة ، وتأثر بها تأثراً جذرياً ، من المعتقدات الدينية التقليدية والمؤسسات التي تتجسد فيها ؟ يستطيع هذا الإنسان أن يستمر في الاعتقاد بآدم وحواء ، وبالجنم والنعم ، وبأن موسى شق البحر الأحمر ، وحول عصاه حية تسمى ؟ كيف يكون موقف الإنسان الذي نشأ نشأة دينية ، وتقبلها جملة وتفصيلاً ، من النظرة العلمية الطبيعية للحياة وللكون والإنسان ؟ من العسير أن نجد بيننا شخصاً يتمتع بشيء من الحس المرهف ، ويقسط ولو متواضع من الذكاء والثقافة العلمية ، لم يعانِ التوتر الذي تنطوي عليه هذه الأسئلة ، والقلق الذي تثيره في إحدى مراحل حياته ونموه) ص ٣٠/٢٩ . وما أظنه يغيب عن فطنة (الدكتور) أن القلق طبيعة مرحلية ، نتيجة الانكشاف على عالم لم يستطع أن يجمع فيه بين إملاءات موروثه لم يتم هضمها ، وإملاءات مدروسة لم يحسن دارسوها الربط بينها وبين الموروثات ، فكان الانقسام الذي لا يلبث بعد أن يرتوى من الموروث والمدرّس أن يجد المصالحة النفسية والعقلية

ولو أن (الدكتور) بعيد من المؤثرات السياسية ، والخضوع لأوهام الأمية ،
التي يستويه دوره فيها ، لأمكنه بقدر من المعرفة ، ويقدر من التواضع ، أن يجد
نفسه في محراب من المحاريب يسبح باسم الله .

ولو أن (الدكتور) أزاح عن عينيه وعن أذنيه العصابة الحمراء قليلاً لعرف
ما يعرفه تلامذة المدارس من أن تاريخ العلم والعلماء ليس مقصوراً على الكافرين ،
بل إن نسبة الملحد من العلماء إلى المؤمنين - في الأديان المختلفة - لا تكاد تصل
إلى واحد في المائة ، فمن أين له هذه الأحكام ؟ ألا يرى أنها آفة الرفض ، لوئت
كل الآبار العذبة ، بالرغم من (الاعتراف الصحيح) بأن العلم لا يزال قاصراً عن
التعرف إلى كثير مما حولنا ، وإلى تعليل كثير مما عرف ؟!

* * *

ويقف وقفة قصيرة عند قصة السجود لآدم . لأنه سيخصها ببحث آخر ، ثم
يعلق على الآيات الكريمة (١٤/١٢) من سورة « المؤمنين » بقوله :
(وخلاصة القول هو أن نمو الخلية البشرية يشكل معجزة إلهية لا تعليل لها سوى
قدرته المطلقة على الخلق ، وتدخله المباشر في سير أمور الكون ، هل يتفق هذا
الوصف والتعليل مع معارفنا العلمية عن الموضوع ، ومع ما يبينه لنا علم الأجنة
حول تطور الخلية البشرية في مراحلها الأولى ؟ الجواب هو حتماً بالنفي ، لأن علم
الأجنة لا يدع مجالاً للشك في أن الخلية تنمو بالتطور العضوي من طور لآخر وفقاً
لقوانين طبيعية معينة . بحيث تنمو المرحلة المتأخرة من صلب المرحلة السابقة عليها ،
وعلى أساس معطياتها الأولية ، كل ذلك بصورة تسمح لنا بالتنبؤ بتطور الخلية ،
وبالمراحل المستقبلية التي ستمر بها . وتمكننا من التحكم بنموها ، بحيث نستطيع
تأخيرها أو إسرعه ، أو تنويره - إن شئنا ذلك - بتعريضها لمواد كيميائية معينة ،
أو أنواع محددة من الأشعة) . ص ٤٠ .

ولسأل السيد الدكتور :

من أوجد هذه القوانين الطبيعية التى تتحرك الخلية على هديها ؟

من هيأ الخلية لحمل الصفات الوراثية ؟

من جعل النواة قادرة على أن تتحول ذكرا أو أنثى أو خنثى ؟

من مكن النواة الأولى من أن تعتبر فرداً أو تنقسم إلى أفراد ؟

كيف لهذه الخلية أن تتحول إلى جهاز هضمى . وجهاز تنفسى ، وجهاز عصبى ، وإلى مخ ، لو أريد صناعة مثله لكان المصنوع فى حجم الكرة الأرضية ؟
أتى للخلية أن تعمل كل إمكانيات العواطف الإنسانية ، والأفكار الإنسانية ،
والتاريخ الإنسانى ؟

ماذا يقول الدكتور فى أن جسم الإنسان يحوى أكثر من مائة ألف نوع من البروتين ، وكل بروتين يعرف رسالته وتخصصه الدقيق ؟

لو أننا تناولنا عالم الروح الذى يعرك هذا التكوين المادى ، والذى لا يسهل على الدكتور إنكاره (مادياً) . فإذا هو قائل ؟

هل يختلف التكوين البيولوجى فى الإنسان عنه فى الحيوان ؟
ذكر أن العالم الألمانى هانس مان عثر فى المناطق القطبية على نوع من السمك مخلوذه من الكريات الحمراء . فكيف فرقت الطبيعة بين الكائنات الحية المختلفة ؟
لماذا كان الخير والشر فى طبيعة الإنسان دون سواه ؟

لماذا عقمت الطبيعة فلم تستمر فى إنجاب الأجيال المتطورة عن الخلية الأولى ؟
أسئلة كثيرة أجدر بالسيد الدكتور أن يشغل نفسه بها قبل أن يقول :
(باستطاعتنا أن نتدخل فى سير الخلية) . . . طبعاً . . . مادما نعرفنا على خط السير
نستطيع أن نتدخل ، كما نتدخل فى مجرى النهر . . . لكننا لا نستطيع أن ننشئ نهراً ،
ونسير سحباً ، نسقطها لتغذى النهر ، وأن نخلق سمكاً ، وكائنات يتغذى عليها
السمك ، وننوع الأسماك ونلونها ، ونجعل بعضها بضئ والآخر يعم .. إلخ ..

فكوننا نستطيع أن نتدخل بالتأثير على مرحلة النمو لا يبنى أن النمو خاضع لتقدير
الحالتي ، وتدخلنا رهن بمعرفة قدر من مكونات هذا (التقدير) ، لكننا لا نستطيع
أن نخلق ، ولا نستطيع أن نضع القوانين . . .

* * *

ويهاجم الأستاذ سيد قطب فيما تناوله (ص ١٦٥) من كتاب (الإسلام
ومشكلات الحضارة) لأنه (يرفض نظرية التطور العضوى ، مع أنها توجت
البحوث العلمية فى علم الحياة ، ونظرية فرويد ، مع أنها من أهم النتائج التى
توصلت إليها البحوث العلمية فى مجال الدراسات النفسية ، ويرفض الماركسية
أو الاشتراكية العلمية ، مع أنها أهم نظرية شاملة صدرت فى العلوم الاجتماعية
والاقتصادية فى العصور الحديثة) ص ٤٣ .

ومن المعروف أن تلامذة دارون وفرويد وماركس اختلفوا معهم فيما اتهموا إليه ،
لأنها مجرد (اجتهادات) قد تصيب وقد تخطئ ، ولم يقل العلم كلمته الأخيرة فيما
ذهب إليه هؤلاء الأقطاب ولن يقول ، وهذه بدئية ، لا تجدى معها العبارات
الاستهوائية مثل (أهم النتائج . . . أهم نظرية) . . .

ولا شك فى أن الأستاذ سيد قطب كان يتحرك من منطلق أن كل ما يتعارض
مع الإرادة الإلهية فهو مرفوض ، وأن كل ما هو داخل هذه الإرادة خاضع لقيم
أخلاقية ، وما خرج على هذه القيم فهو مرفوض ، فأتى للسيد المذكور وهو
يتحرك من منطلق العيشة العدمية - أن يكون حكماً فى فكر أخلاقى رشيد !؟
ثم يهاجم مجموعة من الكتاب الإسلاميين والمسيحيين ، على أساس أنهم
يعتمدون إلى التوفيق بين الدين والعلم ، خضوعاً للانتصارات العلمية التى تكسب
كل يوم أرضاً جديدة ، ليؤكد أن الدين ضد العلم . ص ٤٥ .

كما يهاجم الدول الإسلامية التى تسير فى ركاب أمريكا ودول الغرب ، ويهاجم
المؤسسات الإسلامية التى « تحشد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والاجتهادات

الفقهية والشرعية ، لتبين أن موقف دولتها هو الحق بعينه » ص ٤٦ .

ثم يعرض لجانب هام يغشى حياة الفكر الديني ، وهو محاولة الزج بالعلم المادى فى كل معرض ديني ، وإقحام الاكتشافات والمقررات العلمية على القرآن الكريم بصورة إعلانية عن معارف الكاتب دون مرر . وللأسف راج مثل هذا اللون العائب فى أيامنا هذه ، فاستغله أعداء الدين ما وسعهم الاستغلال .

كتب يوسف مروة فى (العلوم الطبيعية فى القرآن) ، وقدم للكتاب سماحة الشيخ موسى الصدر والشيخ مصطفى الغلايينى [قرر السيد مروة أن فى القرآن ٦١ آية فى علم الرياضيات ، و ٦٤ آية فى علم الفيزياء ، و ٥ آيات فى علم الذرة ، و ٦٢ آية فى النظريات النسبية ، و ٢٠ آية فى المناخيات ، و ٢٠ آية فى علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) إلى آخر اللائحة المعروفة لفروع العلم الحديث ، ويرر السيد مروة هذا التوفيق التعسفى المحض بالكلام الآتى : بل إن الفيزيائيين والكيميائيين والجيولوجيين عندما يقرءون القرآن لا يرون فيه أى تناقض بين أبحاثهم وتجاربهم وبين الأفكار والمرامى العلمية التى تحملها الآيات القرآنية فى مواضيع اختصاصهم ، ذلك أن القرآن كتاب إلهي (لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) الكهف - ٤٩ . و (ما فرطنا فى الكتاب من شيء) الأنعام (٣٨)] .

و (تمكن السيد مروة من تحديد معنى اليوم الإلهي و « الثانية الإلهية » تحديداً رياضياً على أساس النظرية النسبية العامة ، ومن هنا توصل هذا العالم الفذ إلى قياس سرعة النور الإلهي) . ص ٥١ - ٥٤ .

محاولات أقرب إلى العبث منها إلى الروح العلمى تروج هذه الأيام ، وتجد من يصفق لها ، دون أن يدرك صاحبها أنه يسئ من حيث يريد أن يحسن ، وأنه يضيف عبثاً على الفكر الديني ، ويفتح الطريق أمام أعداء الدين ليقولوا إنهم أعرف بطبيعة الدين ممن يتحدثون باسم الدين ففى هذا (خروج عن تعاليم الدين - من وجهة نظر الدين الذى يدافع عنه - لأنه خروج عن مبدأ التثريه ، وسقوط فى

تشبيه الصفات الإلهية بالحداثات المادية ، بل هو سقوط في أقصى أنواع التشبيه ، أى التجسيم ، النور الإلهي في الدين هو طاقة روحية لامتناهية ولا محدودة - أى لا يمكن تحديدها كميًا ورياضيًا على طريقة مزورة - ولا يدرك كنهها إلا بالإيمان والسريرة والبصيرة (الداخلية) ص ٥٥ .

وهكذا مكّن هؤلاء المبتدعون المتجاوزون أولئك الخارجين المارقين من أن يصبحوا معلمين مرشدين .

ولو أن هؤلاء المبتدعين وقفوا عندما حدّد الله من مفهوم القرآن : (هدى للناس ، وبيّنات من الهدى والفرقان) البقرة - ١٨٥ (لتذّر به ، وذكرى للمؤمنين) الأعراف ٢ . (لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم) (إبراهيم ١) .

لو أنهم درسوا الأسلوب القرآن وأسرار إعجازه ، وعرفوا على من نزل هذا اللسان العربي المبين .

لو أنهم أدركوا طبيعة رسالة الرسل والأنبياء ، ماكان لهم أن يفترّوا على الله كذبًا ، وأن يدعوا على اللفظ القرآني ما لا علم للعربية به زمن النزول . ولهذا وجب ألا يهض لهذا الأمر الجليل أمر تفسير القرآن الكريم - إلا من تأدّب بآداب المفسر ، من طهارة النفس ، وفقه للغة ، وبصر بالبيان ، وعلم بالإنسان وتاريخه ، وبخاصة ذلك الإنسان العربي الذي نزل عليه القرآن الكريم ^(١) .

* * *

ثم يعرض للعلاقة بين الإنسان وربه ، معلقًا على قولهم عن الله : (كل ما يخطر في بالك فهو خلاف ذلك) . . يقول : (توجد عدة اعتراضات على هذا الموقف :

(١) انظر تفصيل ذلك في كتابنا : المنهج البياني في تفسير القرآن الكريم ، وفي : القرآن والتفسير المعاصر

للدكتورة عائشة عبد الرحمن

أولاً : هل بإمكانى أن أقيم أية علاقات جدية بينى وبين هذا الإله الذى تتجاوز طبيعته تجاوزاً مطلقاً منطقي ومشاعري وأفكارى ومثلى وآمالى ؟

هل بإمكانى أن أجد عزاء فى إله جلّ ما أعرف عنه هو أنه مهما خطر فى بالى من أفكار وصفات فهو يختلف عنها اختلافاً مطلقاً ؟

إن وجود مثل هذا الإله وعدم وجوده سيان بالنسبة إلى . إن هذا الإله ليس إلا تجريداً فارغاً من كل معنى ومحتوى ، ولا يمكن لإرادة إنسان أن تتعلق بتجريد محض تتجاوز بمراحل التجريد الذى وصفه أرسطو باسم « المحرك الأول » ، فإذا كان بإمكانك أن توجه ابتهاجاً أو دعاءً إلى « المحرك الأول » فمن المؤكد أنك لن تستطيع أن توجهه لإله لا يمكنك أن تصفه بشيء على الإطلاق ، لأنه بطبيعته مخالف لكل ما يرد فى ذهنك من أفكار وكل ما تنطق به من صفات .

ثانياً : إذا كان الإله لا يوصف ولا يدرك بالنسبة للبشر ، فما معنى قولنا إذن بأنه « رحيم وبأنه عادل » ؟ عندما نتعت الله بالرحمة والعدل ، ماذا نعنى بهذه الصفات ؟ أليس هناك من شبه على الإطلاق بين الرحمة والعدل عندما نطلقهما على الله وبين تصورنا الإنسانى لهاتين الصفتين ؟ إذا كان الجواب بالنفى ، هل تكون إذن أذهاننا فارغة من كل معنى وتصور عندما نتعت الله بالرحمة والعدل ؟ هل ننسب إليه كلمات لا معنى لها على الإطلاق بالنسبة للبشر ؟ فى الواقع ، إننا فى موقف حرج حيال هذا الموضوع ، فإما أن نتعت الله بالعدالة وفقاً لتصور يشبه إلى حد ما وبصورة غامضة تصورنا الإنسانى لهذه الصفة ، وإما أن يكون قولنا بعدالته كلاماً فارغاً من كل معنى ومحتوى ، أى أننا مرغمون إما على التشبيه ، وما يترتب عليه من عواقب ، أو على التزيه التام ، وما يستتبع من نتائج . ص ٧٢/٧٣

مجرد كلام ذى بريق ، لا يحمل دلالة ذات قيمة ، لأنه لا علاقة يمكن أن يقيمها المخلوق مع الخالق سوى الإجلال والطاعة ، (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) الذاريات ٥٦ ، ثم الافتقار (إياك نعبد وإياك نستعين) الفاتحة ٥

وإذا كان الله أبعد من كل تصور ، فلأنه (نور السموات والأرض) . . (نور على نور) . النور ٣٥ وليس في وسع العقل الإنساني القاصر أن يحده ، وحسبه أن يتعرف عليه من خلال آثاره ، وهذا أبلغ في التعظيم ، وأدعى إلى الطاعة الخالصة من كل رياء . .

أما صفات الله فهي من واقع آثار الله فينا ، وليست من واقع تعرفنا على ذاته ، لأن الربط بين الذات والصفات بهذا المفهوم الذي عناه الكاتب تنزيل الخالق - سبحانه - إلى صفات مادية تنزه عنها . .

ورحمة الله وعدله وبقية صفاته إنما هي مدركات لكمال الصفات ، وحسبنا - إذا عجزنا عن الإدراك - أن نتعرف إليها من خلال إخباره ، جل شأنه .
ولهذا وجب ألا نسمى الله - سبحانه - إلا بما سمي به نفسه ، لا كما فعل السيد (الدكتور) حين سمي الله الماكر ، دون وعي للأسلوب البلاغي الوارد في قوله تعالى : (ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين) . . الأنفال - ٣٠ .

* * *

ويجتم بحثه ملخصاً الهدف بقوله :

« حسن أن يفرق بين الدين والشعور الديني ، فالشعور فطرة ، والدين آداب والتزامات ، ولا يصلح أحدهما بغير الآخر ، ولهذا قيل : « دين الفطرة » ، جمعاً بين الدستور والحاجة إليه ، والرغبة في تحقيقه والشوق إلى ثماره » ص ٧٨ .

لكن السيد (الدكتور) ، اتخذ من هذا التفريق وسيلة للخلاص من الدين ، اكتفاءً بالشعور به ، ليفرغ الدين من كل قيمه ، إلا الإخلاص والتضحية والتسامي ، حتى يجد (الماركسي) في كفاحه ما يشبع غريزة التدين فيه ، أو ليخدع الإنسان فيه عن هذا الشعور بالتسامي . . وكأنه - من خلال (بحثه) الطويل ، مع أنه لم يلتزم آداب البحث - إنما أراد أن يقول : لا حاجة إلى هذا الدين الذي

تدينون به ، لأنه صارف عن الماركسية ، وإذا كان لابد من دين ، فالماركسية دين .

مأساة إبليس :

محاضرة أقيمت في النادي الثقافي العربي سنة ١٩٦٥ ونشرت بمجلة « الثقافة العربية » ، شباط سنة ١٩٦٦ م ، جعل شعارها قول جوتة على لسان فاوست : أنا روح رافضة أبداً .

وفيها يقول : (كان إبليس من المقربين بين الملائكة ، وكان له شأن عظيم في نظام الملأ الأعلى ، إلى أن عصى أمر ربه ، فطرده من الجنة ، ولعنه لعنة أبدية ، فأصبح بذلك تجسيدا لما هو شر ، وجمع في ذاته كافة الخصائص التي تنتج عن الله ، ويلاحظ هنا أن اسمه يدل على جوهره ، وهو (الإبلاس) أى اليأس التام من رحمة ربه ، ومن العودة إلى الجنة (وفقاً للتفسيرات المعنى الإبلاس) . ص ٨١ .

وقد اعتمد - للأسف - على كتابات (إسلامية) واستغل الاجتهادات والعبارات (الملونة) في خدمة الهدف الذي خطط له .

وهو - منذ البداية - يلجأ إلى المغالطة ، فيختار من كتابات (الإسلاميين) ما يتفق وهواه ، وليس من شك في أننا نجد في كتاباتهم أقصى اليمين وأقصى اليسار ، بل إن في كتابات المفكر الواحد جمعاً بين التقيضين في مكانين مختلفين ، بسبب سيولة الكلمة ، والتهاب العاطفة ، وافتقاد المنهج .

ولنسأل : من قرآن إبليس كان (من المقربين بين الملائكة) والنص القرآني أنه (كان من الجن) ؟ الكهف - ٥٠ فلما قال له الله سبحانه : (ما منعك أن تسجد إذ أمرتك ؟ قال : أنا خير منه ، خلقتني من نار ، وخلقته من طين) الأعراف - ١٢ . والملائكة في كتابات جمهرة الإسلاميين من نور والجن من نار ، إذن فإبليس

ليس من الملائكة ، وليس من المقربين . هذا إلى أن عالم الملائكة والجن ليس مما ينكشف أمره لنا ، والحديث عنه اجتهاد ظنى ، لا مجال للقطع فيه ، وكل يفسر على وفق ما تراتح إليه نفسه ، ولهذا نجد من يقول عن الملائكة : إنهم شخوص ، ومن يقول : إنهم قوى معنوية ورموز . . . والذي يروج في أقالام المفكرين الحديثين أنهم قوى معنوية ، ولو أننا أخذنا بهذا التفسير لوجدنا حلول كثير من المشكلات . . . فإذا كانت الملائكة تمثل قوى الخير ، وإبليس يمثل قوى الشر ، فالأمر (فى القصة) أمر كئوف ، بمعنى أن قوى الخير فى الإنسان تمثل الاستجابة والطاعة ، وقوى الشر تمثل العناد والمعصية ، والأسلوب القرآنى - فى عرض هذه الحقيقة - أسلوب (تمثيلى) جرى فى عرض كثير من المعانى القرآنية ، كما فى الحديث عن الأمانة : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملها ، وأشفقن منها ، وحملها الإنسان) الأحزاب - ٧٢ ، وكما فى الحديث عن فطرة الإيمان بالله : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا) الأعراف ١٧٢ ، وغير هذا كثير فى حديث الجنة والنار . . .

إذن فالمراد بعيد من مخالفة أمر الله ، وبعيد من (الواقع التشخيصى) الذى يتخيله السذج والبسطاء ، لأنه ليس من المعقول فى شيء أن يعصى الكائن خالقه (على مشهد منه) ، وهو يعلم قدرة الخالق على أن يقضى فيه ، ويعلم أن عصيانه لن يجديه ، ولن يحقق له رجاء .

هذا إلى أن (التشخيص) تجسيد ، وتشبيه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً

* * *

ولقد أخذ الكاتب على ابن الجوزى فى (تلبس إبليس) أنه (من حيث لا يعلم ولا يدري) أسبغ على إبليس (قوى خلاقة مبدعة ، تثير الإعجاب والتقدير ، وعلى سبيل المثال ، يعزو ابن الجوزى معظم الحركات الدينية والفكرية الكبرى التى

قامت في تاريخ الحضارة الإسلامية إلى عمل إبليس ، ويجعله مسئولاً عنها ، فيحول به ذلك إلى فيلسوف كبير ، ومتكلم قدير ، يقول إمامنا المحترم : إن السوفسطائية ، والذهرية ، والطبائعية ، وأديان الشرق الأقصى ، والمسيحية ، وعلم الكلام ، وفرقة المعتزلة ، هي من أعمال إبليس ، ونتيجة لتبليسه على المفكرين والعلماء ، كما أنه يرد حركة الخوارج ، والرافضة ، والزهد ، والتصوف ، إلى تبليسه على أئمة هؤلاء القوم ، بما فيهم أبو طالب المكي والإمام الغزالي . . . إلخ (ص ٨٢/٨٣)

وهو - فيما يعرض من كلام ابن الجوزي - إنما يقصد إلى السخرية من (الفكر الإسلامي) ، مثلاً في هذا المسلك العاطفي الذي إذا رضى أعْدق ، وإذا سخط أحرَق ، ويجعل منه (الفكرة الشائعة) ، ثم يبنى على هذا (أن إبليس يسير قسماً كبيراً من مجرى الأحداث) ويكون شريكاً لله في ملكه ، مع أن كلام ابن الجوزي لا يعدو النقمة على من لم يرض عنهم ، فوصف دوافعهم بالشر ، وبالشر صاروا أتباع إبليس (رمز الشرور) . . .

والكاتب يكشف عن هويته التي تختار وتلون المختارات ، كما تهوى ، بما هيون من أمره ، لأنه - كما يقولون - إذا عرف السبب بطل العجب ، وهو لا يوارى ولا يدارى ، بل يعلن صراحة :

(سأختتم هذا الجزء من بحثي بالتأكيد على أن كلامي عن الله وإبليس والجن والملائكة والملا الأعلى لا يلزمي على الإطلاق بالقول بأن هذه الأسماء تشير إلى مسميات حقيقية موجودة ، ولكنها غير مرئية . إن تركيب اللغة يتطلب منى بطبيعة الحال أن أكتب وأتكلم بطريقة معينة ، توحى في الظاهر وكأن الشخصيات التي أذكرها موجودة بالفعل ، ولكن يجب ألا يخدعنا هذا الوهم اللغوي) ص ٨٦ .

وقد وجد بغيته في كثير من العبارات التي تخضع في تفسيرها لمعرفة حال صاحبها . وإلا خدعنا عن حقيقة مدلولها (الوهم اللغوي) المتعلق بظاهر اللفظ . . .

ولهذا لجأ إلى الصوفية الذين تتلون ألفاظهم بألوان موهمة لمن لن يألف أجواءهم النفسية . . استعان بكثاني (الطواسين) للحلاج ، و (تفليس إبليس) لعز الدين المقدس . وكلاهما صوفي يعبر عن مشاعر خاصة ترتبط (خال) يمر بها . فإذا عبّارة ذات ظاهر وباطن ، وكثيراً ما يتزعّ ظاهرها متزعّ الخروج على التقاليد والأعراف الدينية . . وكان (الدكتور) ذكياً في استخدام التصوص (الصوفية) للوصول إلى هدفه .

(يقول الإمام عز الدين المقدس ، في كتابه تفليس إبليس ، مخاطباً الشيطان : وأنت الذي خلقت الله بيد قدرته ، وأطلعك على بدائع صنعته . وأبسك خلج توحيده . وتوحدك بتاج تقديسه وتمجيده . وجعلك تحول في مجال ملائكته ، يقتبسون من نورك ويستأنسون بخضورك ، وهتدون بعلمك ويقتدون بعملك ، فما برحت في الملأ الأعلى ، تشرب بالكأس الأملئ ، وتتلذذ بالخطاب الأحلى ، طالما ، كنت للملائكة معلماً ، وعلى جميع الكرويين مقدماً) . ص ٨٧ .

كلام تعجب صباغته ، وتغرب دلالته ، تحار من أين أتى بهذه الأفكار : (يقتبسون من نورك ، ويستأنسون بخضورك ، وهتدون بعلمك ، ويقتدون بعملك) . . لكنها شطحات الصوفية ، يكفرهم بها ابن الجوزي وابن تيمية وابن قيم الجوزية ، ويستغلها من لم يألف أسلوب القوم . وكان في قلبه مرض ، ليتخذ منها وسيلة للتهكم والتهجم والانفلات .

ثم يورد الآيات القرآنية التي تحدث عن قصة السجود لآدم (البقرة ٣٠/٣٤) ، و (الحجر ٣٨/٤١) ، و (الأعراف ١٠/١٧) ، وبين الفرق بين الأمر والمشيئة الإلهية ، ويعلق بقوله :

١ - (لاشك أن إبليس خالف الأمر الإلهي عندما رفض السجود لآدم . غير أنه كان منسجماً كل الانسجام مع المشيئة الإلهية . ومع واجبه المطلق نحو ربه . .

٢ - لو وقع إبليس ساجداً لآدم لخرج عن حقيقة التوحيد وعصى واجبه المطلق نحو معبوده . . . أراد الله للملائكة أن يقدسوه وأن يسبحوا باسمه ، لذلك كان السجود لآدم وقوعاً على ما يضيفه أهل الشرك إلى الذات الصمدية ، مما هي مترهه عنه ، إذ إن السجود لغير الله لا يجوز على الإطلاق لأنه شرك .

في الواقع يثير اختيار إبليس سؤالاً هاماً جداً ، هو : هل تكن الطاعة الحقيقية في الإذعان للأمر أم في الخضوع للمشيئة ؟ هل يكن الصلاح في الانصياع للواجب المطلق أم لواجبات الطاعة الجزئية ؟

لو كان الجواب على هذا السؤال بسيطاً وواضحاً لما وجدت المأساة في حياة الإنسان ، ولما وجد إبليس نفسه في هذه المحنة ، ولما وقع بين برائن الأمر والمشيئة . نستنتج إذن أن موقف إبليس يمثل الإصرار المطلق على التوحيد في أصلى معانيه ، وأبقى تجلياته ، وكان لسان حال إبليس يقول : « جبين سجد للأحد لا يذل في الوجود لأحد (تفليس ص ١٥) وغير شهيد الصوفية الحلّاج عن هذه الحقيقة في « كتاب الطواسين » بالكلمات الآتية : « التقى موسى وإبليس على عقبة الطور ، فقال : يا إبليس ، ما منعك عن السجود ؟ فقال : منعني الدعوى بمعبود واحد ، ولو سجدت له لكنت مثلك ، فإنك نوديت مرة واحدة : (انظر إلى الجبل) فنظرت ، ونوديت أنا ألف مرة : « أن اسجد ، فما سجدت للدعوى بمعناي » (طاسين الأزل والالتباس) .

٣ - برر إبليس رفضه السجود لآدم تبريراً منطقياً واضحاً ، إذ قال : (أنا خير منه ، خلقتني من نار ، وخلقته من طين) ، وبالإضافة إلى ذلك تتضمن الآيات القرآنية التي أشرت إليها تبريراً خفياً لرفض إبليس ، وهو معرفته المسبقة بأن آدم وذريته سيعيثون في الأرض فساداً ، ويسفكون الدماء ، وكان هذا شعور الملائكة أجمعين ، عندما قالوا لربهم : (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) أي كانت الملائكة بما فيهم إبليس ، على علم

بما سيرتكه آدم وذريته من الكبائر والمعاصي فاستكبرت واستعظمت أن يخلق الله من يعصيه ويسفك الدماء - ص ٩١/٩٠ .

جدل تظمن إليه بعض النفوس ، مادامت تجهل أن من معاني السجود الانقياد والتسخير ، (وهو الدلالة الصامتة الناطقة المنبهة على كونها مخلوقة ، وأنها خلق فاعل حكيم) - مفردات الراغب الأصفهاني - الحلبي سنة ١٩٦١ ص ٢٢٤ - كما هو وارد في قوله سبحانه : (ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض) التحل ٤٩ ومادامت تجهل أن من معاني الأمر تنفيذ سنة الله في الخلق : (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميراً) - الإسراء ١٦ .

ومن الآداب المعروفة أن يفسر القرآن بالقرآن ، ولا شك أن فهم السجود والأمر على هذا الأساس سيطل سحر الساحر ، ولا يصبح محالاً لانهايم الملائكة بأنها أشركت ، أو بأنها (استكبرت واستعظمت أن يخلق الله من يعصيه ويسفك الدماء) ، لأن الخبر لا يعدو تقرير واقع جرى به أسلوب الحوار (التثليل) البليغ ، ولا يصبح محالاً لو صف إبليس (بالإصرار المطلق على التوحيد في أصق معانيه) ، لأنه سيرتب على هذا وصف الملائكة بخلاف ذلك ، ومن ثم ، يلتبس مفهوم الطاعة بالمعصية ، وهو ما يهدف إليه الكاتب . . ثم إن قول إبليس : (أنا خير منه) ينفي إرادة التوحيد ويصبح الموقف تعبيراً عن زهو وكبرياء .

أما ما هو من أمر التعبير الصوفي في هذا المجال وغيره فالصوفية يوظفون (الشخص) توظيفاً فنياً ، من أجل إبراز معاني متسامية ، ومن أجل الترجمة عن مشاعر أكثر شفافية وأنتى صفاء ، وموقف الحلاج والمقدسي هنا رهن بتصوير التوحيد المطلق ، والارتباط بمحدود القصة .

ولعل الحوار الذي أجراه الحلاج بين موسى وإبليس ليفيد أن الأمر أمر ابتلاء يكشف عن أن الحلاج إنما بعالج مشاعره الخاصة من خلال هذا التناول :

قال موسى لإبليس : تركت الأمر .
فأجاب إبليس : كان ذلك ابتلاء لا أمراً .
فقال له موسى : لا جرم . قد غير صورتك .
فأجاب إبليس : يا موسى ، ذاودا تلبس ، والحال لا معول عليه . فإنه
يجول ، لكن المعرفة الصحيحة كما كانت ، وما تغيرت ، وأن الشخص قد تغير
(عن طاسين الأزل والالتباس) .

ويأخذ على الأستاذ العقاد تفضيل آدم على الملائكة لأنه عرضة للخير والشر ،
في حين أن الملائكة بمنجاة من الغواية ، ويقول : إنها (دعوى فاسدة من أساسها
للأسباب الآتية :

(أ) تبرهن قصة إبليس أنه حتى سادة الملائكة والقربين منهم ليسوا بمنجاة من
غواية الشر ، وإلا لما عصى إبليس ربه . وانتهى إلى بئس المصير .
(ب) لو افترضنا جدلاً مع العقاد أن الملائكة ليست عرضة للخير والشر ، وإنما
هي تفعل الخير دائماً بطبيعتها وجوهرها . . . أيها أفضل : الكائنات التي تصنع
الخير أحياناً ، وتصنع الشر أحياناً أخرى . فتفسد في الأرض ، وتسفك الدماء ،
أم الكائنات التي لا تصنع إلا الخير بصورة مستمرة ودائمة ؟
فهل يريد العقاد أن يجعل من قدرة آدم على الإفساد وسفك الدماء مصدراً
لسموه على الملائكة ؟ ص ٩٤ .

طبعاً لا يريد العقاد ذلك ، لأن العقاد يقصد إلى فكرة فلسفية ، مصدرها
الأمانة التي حملها الإنسان ، وهي أمانة (الاختيار) وخوض التجربة . . .
ولاشك في أن معاناة الصراع بين الخير والشر ، بين الحق والباطل بين الواجبات
ونوازع الشهوات - ترتفع بالمتنصر درجات .
ولو أننا فرضنا إمكانية المقارنة بين حال الإنسان هذا ، وحال من لم يتل بهذه

المعاناة ، فإن تفضيل (الإنسان) سيكون أقرب إلى مدركاتنا ، دون حاجة إلى
المغالطة في وصف الملائكة بأنهم (ليسوا بمنجاة من غواية الشر) والبارى - جل
شأنه - أخبر عنهم بقوله : (وهم لا يستكبرون ، يخافون ربهم من فوقهم ،
ويفعلون ما يؤمرون) النحل ٥٠/٤٩ . (لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون
ما يؤمرون) التحريم ٦ .

وقد تنكشف المغالطة لو أننا أعدنا صياغة السؤال ، فقلنا ، أيها أفضل :
الكائنات التي تصنع الخير مختارة ، أم التي تصنعها دون اختيار؟
فكيف إذا أضفنا إلى اختيار الخير نوازع النفس الأمارة بالسوء ، وبهجة الحياة
وزخارفها ؟ !) .

والأستاذ العقاد شأن الكتاب الإسلاميين - يفضل آدم على الملائكة ، لأن
الله علمه الأسماء كلها ، فبرد عليه بقوله : (ولا شك أنه كان باستطاعة الملائكة
تعلم الأسماء كلها لو شاء الله ذلك) ص ٩٥ .
مع أن تعليم الأسماء مرتبط بالتجارب المتصلة التي يمر بها آدم في المجتمع
الإنساني . فعلى (علم آدم الأسماء كلها) أعطاه القدرة على المعرفة ، ويجتمع
الملائكة لا يوفر هذه المعارف لأنه ليس في حاجة إليها .
ولو أننا قيدنا كل فعل بقولنا : (لو شاء الله ذلك) لما كان لأحد من المخلوقات
كلها فضل .

ثم يقول : (إن جوهر إبليس أفضل وأسمى من جوهر آدم ، لأن الله خلقه من
نار وخلق آدم من صلصال . وهو الذي أراد للصلصال ألا يسمى سمو
النار) ص ٩٦ .

ولم يكن بشار (مفتياً) في هذا المجال ، حتى نقول : (والطين لا يسمى سمو
النار) . . فالطين مادة أولية ، تشكلت ونفخ فيها من روح الله ، وقيمة المادة في

القدرة على تشكيلها ، فإذا شكلت في أحسن تقويم ، وكرمت ، فلا وجه لتفضيل النار عليها ، ثم إن إبليس يدعى هذه الدعوى ، وليس يقره عليها إلا أمثاله من الأبالسة . . .

* * *

وتستويه المعالجة الصوفية لهذه القضية (الإنسانية) فيمسك بظاهر اللفظ لبشوه القيم ، ويضرب ضربات (دونكيشوتية) واهماً أنه يصيب مقاتلاً ، فيقول : (عبر العلاج عن محنة إبليس بإيجاز رائع بقوله : لَمَّا قِيلَ لَإِبْلِيسَ : اسْجُدْ لِآدَمَ ، خَاطَبَ الْحَقُّ : أَرَفَعَ شَرَفَ السَّجُودِ عَنْ سَرَى إِلَّا لَكَ حَتَّى أَسْجُدَ لَهُ ؟ إِنْ كُنْتَ أَمَرْتَنِي فَقَدْ نَهَيْتَنِي) ص ٩٧ .

معان نفسية تعالج مفهوم (التوحيد) الخالص ، وترجم عن وساوس وهواجس ، تتاب (الإنسان) في معركة طويلة مريرة ، يعرض عنها الكاتب ، حاجة في نفسه ، وتوصلا إلى عقد مقارنة بين محنة إبليس ومحنة إبراهيم عليه السلام ، لا ليرجع ، أو يوازن ، بل لنبال من قيمة أخلاقية كبرى ، ومن درس في طاعة المخلوق للمخلوق ، لا أنسى ، ولا أبلغ . .

يقول : (خضع إبراهيم لأمر ربه ، ووضع المديّة على عنق ولده ، خالف بذلك القواعد الأخلاقية المطلقة التي أنزلها الله على عباده ، عن كيفية معاملة الآباء للأبناء والأبناء للآباء) ص ١٠٢ .

إذن : (مأساة إبليس كانت أعظم وأفجع من محنة إبراهيم ، ولا يقول مأساة إبراهيم بسبب ذلك الكبح الذي ذبحه عوضاً عن إسحق ، لأن التناقض الذي واجهه إبليس لم يكن بين واجبات الطاعة الدينية ، وبين واجبات الطاعة الأخلاقية ، بل كان بين واجبات الطاعة للأوامر الإلهية فحسب ، بعبارة أخرى واجه إبليس الرب ، وهو يناقض نفسه ، بصورة مباشرة ومفضوحة ، فذهب ضحية هذا التناقض وضحية الموقف الذي اختاره ووقفه) ص ١٠٣ .

وتعجب لهذه (الوقاحة) في عبارته (وهو يناقض نفسه بصورة مباشرة ومفضوحة) ، لكن ، لماذا أدب (الكفار) أنفسهم ؟ إنه لا يكتفى بالكشف عن سوء أدبه وخبث طويته ، بل يكشف عن غيائه في تعامله مع عبارات الخلاج فلا يدرك أن قوله :

(أفردنى ، أوحدى ، حيزنى ، طردنى ، ثلثا أختلط مع المختصين . ما نعى عن الأغيار لغيرى ، غيرى لحيزى . حيزى لغيرى ، قبضى لمدحى ، أحرمنى لهجرى ، هجرنى لمكاشفى ، كشفى لوصلنى) . . (طاسين الأزل والالتباس) . إنما هو ترجمة عن عنة نفسية عاشها الخلاج . من واقع تأملاته العميقة في العلاقة بين الناسوت واللاهوت ، وقد اتخذ من إبليس (مشجاً) علق عليه (الزبد الخالد) الذى تفرزه سياحته الروحية . . وقد سار سيرة الإمام المقدسى وهو يقول على لسان إبليس :

(ثم لكأل شقوى سألت الإنظار ، فصرت أضحوكة للحضار . أدوب إذا سمعت الذاكرين وأتمرق إذا رأيت الشاكرين . واحد أفر من ظله ، وواحد أهرب من ذكر فعله ، وواحد تحرقى أنفاسه ، وواحد يعجزنى مراسه ، إذا تاب التائب قصم ظهرى ، وإذا رجع الآيب نقص عمرى . كل ما بنيت مع العاصى فى سنة تهدمه التوبة فى سنة ، فأنا فى ويل لا يزول ، وحرب لا يحول ، وحزن شره يطول) ص ١٠٤/١٠٥ .

فظاهر النصين ترجمة صوفية عن (حال) هى مزيج من الوجد والخوف والرجاء ، وعلى طريقة الرمز فى الكتابة الأدبية اتخذ إبليس (معادلاً موضوعياً) يسقط الكاتب الصوفى عليه مشاعره وانفعالاته الخاصة ، ومن ثم . لا يحسن الاستشهاد بمثل هذه النصوص فى مجال (موضوعى) ، يراد به (تعريه) الفكر الإسلامى ، وبيان تأثير (الأسطورة) عليه !

(وصف الحلاج موقف إبليس من ربه بعد أن نزلت عليه اللعنة الأبدية في محادثته التي تخيلها بين موسى وإبليس . . قال : قال موسى لإبليس : الآن تذكره ؟ فأجاب إبليس : يا موسى ، الفكرة لا تذكر ، أنا مذكور وهو مذكور . ذكره ذكرى وذكرى ذكره ، هل يكون الذاكرون إلا معاً ؟ خدمنى الآن أصنى ، ووقى أخلى ، وذكرى أجلي ، لأنى كنت أخدمه في القدم لحظى ، والآن أخدمه لحظه) ص ١٠٩ (عن طاسين الأزول والالتباس) . ونظر الإمام المقدسى إلى مصير إبليس وكبريائه نظرة غير مألوفة ، متأثراً في ذلك برأى الحلاج فقال :

(قال لى : اسجد لغيرى ، قلت : لا غير ، قال : عليك لعننى ، قلت : لا ضرر ، إن أدبنتى فأنت أنت ، فقال : تفعل ذلك استكباراً وفخاراً ؟ فقلت : سيدى ، من عرفك في عمره لحظة ، أو خلا بك في دهره غمضة ، أو صحبك في طريق محبتك ساعة ، حق له أن يفتخر ، كيف بمن قد قطع الأعمار ، وعمر بحبك الآثار ، كم قد قت في صحائف توحيدك في الليل والنهار ، كم قد درست من دروس تقديسك وتمجيدك في الإعلان والإسرار ، والآثار تشهد لى ، والديار تعرف بحقى ، والليل والنهار يصدقنى) . ص ١١ (عن تفليس ص ٢١/٢٢) . هذه المناجاة - وهى لا تخرج عما جرى على لسان إبليس بقلم الحلاج - ليست إلا ترجمة نفسية للكاتب (حال) ، مردها الحس الواعى بالحضور الإلهى ، وبالرحمة التى وسعت كل شئ :

لم يبق عفوك فى السموات العُلا والأرض شيراً خالياً للنار
ومن هنا تفتح أبواب الأمل والعزاء معاً ، الأمل فى المغفرة ، والعزاء فى الاستمتاع بالحضور ، حتى فى حالة (التجاوز) ، لأن التجاوز يذكر بالله ، كما تذكر الطاعة ، لأنها ثمرة (إنشاء) إلهى ، و (إرادة) إلهية .

وهذا تصور شائع على ألسنة كثير من الصوفية المتأخرين ، وبخاصة ابن عربى

الذى دافع عن إيمان فرعون دفاعاً طويلاً فى كتابيه (فصوص الحكم) و(الفتوحات المكية) ..

* * *

ثم فرق بين سجود الملائكة وعدم سجود إبليس بقول الخلاج :
(سجدوا لآدم على المساعدة ، وإبليس جحد السجود لمدته الطويلة على المشاهدة ، لأنه هو الذى كان أعلمهم بالسجود ، وأقربهم من الموجود ، وأبذلهم للمجهود ، وأوفاهم بالعهود ، وأدناهم من المعبود) .. (طاسين الأزل والالتباس) .

وبما أن هذه الأوصاف لا مصدر لها إلا خيال كاتبها ، فالخلاج إذن يعالج قضية فلسفية ، لا قصة دينية ، ومن ثم لا ينبغى تحميل النص القرآنى تأملات (ذاتية) لا تعبر إلا عن رؤية نفسية متجردة ، لا يملكها إلا صاحبها ، ولا يسهل على الكثيرين أن يمروا بنفس (حاله) ، وأن يفعلوا بانفعاله .

* * *

وألح على مفهوم القضاء والقدر ، من أجل أن يرى إبليس مما ينسب إليه ، مستعيناً بقول المقدسى على لسان إبليس :

(إن زل أحدهم قال : إنما استزلهم الشيطان ، وإن نسى أحدهم قال : فأنساه الشيطان . وإن عمل أحدهم قال : هذا من عمل الشيطان ، فانا حمال أوزار المذنبين ، وحوال أنقال الخاطئين) . (تفليس ص ٣٦) .

مع أن إبليس لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا لأن الله هو صانع الخير والشر بدليل الحديث القدسى القائل :

« إن الله عز وجل - يقول : لا إله إلا أنا ، خلقت الخير وقدرته ، فطوبى لمن خلقت له للخير ، وخلقت الخير له ، وأجريت الخير على يديه ، أنا الله ، لا إله إلا أنا ، خلقت الشر وقدرته ، فويل لمن خلقت الشر ، وخلقت الشر له ، وأجريت

الشر على يديه » (الاحتفالات السنية في الأحاديث القدسية ٧١) .

قال من يجب أن ينسب إبليس عصيانه وجحوده ؟ أو على حد قول إبليس :
« فلئن كنت إبليس آدم ، فليت شعري من كان إبليسي ؟ » (تفليس ١٦) .
وبطبيعة الحال أحال إبليس جحوده إلى مصدره الحقيقي والنهائي بقوله : (فيما
أعوتني) فأعطى بذلك لله ما لله ، ولم يعط لقيصر شيئاً ، لأن قيصر لا يملك شيئاً
على الإطلاق بالنسبة لإبليس ، ولا حول له ولا قوة حتى ينسب له أى شيء
ص ١٢٤/١٢٦ .

وهدف الكاتب من هذا كله أن يصل إلى (عشية) محبة إبليس ، إن كان هناك
إبليس ، وليطعن في مفهوم العدالة الإلهية ، إن صحت هذه القصة ، وليسخر من
الموقف كله بقوله مدافعاً عن إبليس :

« تمسك إبليس بحقيقة التوحيد تمسكاً لا مثيل له ، ولذلك لا يمكن أن ينتهى
في جهنم ، عملاً بالحديث القدسي القائل : « قال الله عز وجل : إني أنا الله ،
لا إله إلا أنا ، من أقرنى بالتوحيد دخل حصنى ، ومن دخل حصنى أمن عذابي »
(الاحتفالات السنية ٤) .

(ولقد) نجح إبليس في التجربة التي ابتلاه الله بها ، وصبر على البلاء الذي
حل به ، من جرائها ، وعليه ، فإن مكافأته النهائية مضمونة بدليل الحديث القدسي
القائل : « قال الله عز وجل إذا ابتليت عبداً من عبادى مؤمناً فحمدنى ، وصبر
على ما ابتليته ، فإنه يقوم من مضجعه ذلك كيوم ولدته أمه من الخطايا ، ويقول
الرب للحفظة : إني قيدت عبدي هذا ، وابتليته ، فأجروا له ما كنتم تجرون له قبل
ذلك من الأجر » (الاحتفالات السنية ١٠) .

ثم يقول معقّباً على هذا كله ساخراً :

(أعتقد : أولاً : أنه يجب علينا إدخال تعديل جذري على نظرتنا التقليدية إلى
إبليس ، وإحداث تغيير جوهري في تصورنا لشخصيته ومكانته .

ثانيًا : يجب أن ترد له اعتباره - بصفته ملاكًا يقوم بخدمة ربه بكل تفان وإخلاص ، وينفذ أحكام مشيئته بكل دقة وعناية .
وأخيرًا : يجب أن نكف عن كيل السباب والشتائم له ، وأن نغفو عنه ، ونطلب له الصفح ، ونوصي الناس به خيرًا بعد أن اعتبرناه - زورًا وهتائنًا - مسئولًا عن جميع القبائح والنقائص (ص ١٢٨) .
ثم يحذرنا من مغبة رد الاعتبار لإبليس ، مستشهدًا بمسرحية (الشهيد) لتوفيق الحكيم ، التي يقول فيها جبريل مخاطبًا إبليس :
(زوالك من الأرض يزيل الأركان ، ويزلزل الجدران ، ويضيع الملامح ، ويخلط القسمات ، ويمحو الألوان ، ويهدم السمات ، فلا معنى للفضيلة بغير وجود الرذيلة . . . ولا للحق بغير الباطل . . . ولا للطيب بغير الخبيث . . . ولا للأبيض بغير الأسود . . . ولا للنور بغير الظلام . . . بل ولا للخير بغير الشر . . . بل إنَّ الناس لا يرون نور الله إلا من خلال ظلامك . . . ووجودك ضروري في الأرض ، ما بقيت الأرض ، مهبطًا لتلك الصفات العليا التي أسبغها الله على بني الإنسان) (ص ١٢٨) .

• • •

وعد فالكتاب فيما عدا هذين (البحثين) - لا يكاد يحرك ساكنًا . . .